

الفن

الفن المصرى

العقيدة الدينية أصل الباعث على الفن

للدكتور احمد موسى

انظر إلى خريطة وادى النيل الطبيعية ، تجد أن مصر واد جيل منبسط ، لا تتخلله ارتفاعات ولا انخفاضات خصوصاً فى المناطق المأهولة بالسكان ، أما الامطار فهى نادرة فيه ، فضلاً عن أن الشمس تسطع عليه طوال أيام السنة

وتفكير الناس وتكوين إحساسهم وليد البيئة التى يعيشون فيها . ولما كان الفن وليد دقة الإحساس وسمو التفكير ، وجب أن يكون الفن المصرى بسيطاً سهلاً ، نظراً لبساطة الخيال المصرى ولين شاعريته ، على عكس الخيال الاغريق مثلاً

وكان المصرى ولا يزال قليل الاستمتاع بجمال الطبيعة لندرة تغيرها ، على حين نرى الاغريق عظيم الإحساس بالجمال والاستمتاع به سريع التأثير بمظاهر الطبيعة المتقلبة ، كثير السعى والبحث وراء ما فيها من جمال وفن . كل هذا راجع إلى الاختلاف الطبيعى بين مصر وهى البلاد المنبسطة المكونة من قطعة واحدة غير منفصلة ، وبين اليونان وهى جزائر سواحليها كلها تضاريس ، فضلاً عن كثرة الارتفاعات والانخفاضات فى سطحها

وقد أوضحت شيئاً يسيراً عن الفن المصرى قبل التاريخ ، وقلت إن اللغات إلى الدين كان قيل عهد الأسرات ، وأن هذا اللغات نما وازداد حتى عصر مينا ، الذى وحد بين الوجهين البحرى والقبلى مكوناً مملكة واحدة

وإذا استطعنا أن نفهم شيئاً عن تطور العقيدة الدينية ، فإنه يمكننا أن ندرك الفن المصرى إلى حد الاستمتاع

أنعم المصريون النظر فى الموجودات والمرئيات ، وانجسوا بنظرم إلى السماء ، فتصور بعضهم أن القبة السماوية شئ أشبه بقرة كبيرة رأسها متجه نحو الغرب ، وأن بلادهم بين أرجلها ، كما تخيلوا

أن النجوم لا تخرج عن كونها زينة تنحلى بها وتصور غيرهم أن السماء على هيئة امرأة انحنت متجهة يديها ورأسها نحو الغرب ، وبأرجلها نحو الشرق ، وأن النجوم حلى منتشرة على بطنها وصدرها

وإذا فكرنا قليلاً نجد التشابه فى الفكرة عظيماً ، ولا سيما وأن الذين تخيلوا السماء على هيئة بقرة ظنوا أن الشمس تولد (تشرق) على هيئة عجلة صغيرة ؛ وأما الآخرون الذين تخيلوها على شكل امرأة فقد ظنوا أنها تشرق على هيئة طفلة تسير من الشرق إلى الغرب ، فلا تلبس أن تصير عجوزاً عند غروبها

ظل الحال كذلك حتى اتصل أهل مصر العليا بأهل مصر السفلى وتم التعارف بينهم ، وتبادلوا التجارة وتغامروا فى شؤون الحياة وفى شؤون الدين

وكانت نتيجة هذا التعارف والتغامر أن وجدنا أن هناك من رأوا الصقر يطير بسرعة ، فتخيلوا الشمس مثله ، تطير بجناحين من الشرق إلى الغرب . وكان أثر هذا الخيال عميقاً فى الفن المصرى ، فترى الشمس قد رسمت بجناحين فى مناسبات مختلفة

ولم ينته الأمر عند هذا الحد ، بل نظر المصرى إلى الماديات وأولها وادى النيل ، فتخيله رجلاً منبسطاً على الأرض ، ظهره إلى السماء وعليه نمت النباتات ، وطاش الانسان والحيوان مستمدين الحياة من الشمس . وظنوا أن الدينياتبدأ حيث بدأ النيل من ذلك المحيط اللانهائى جنوباً ، وتنتهى حيث يصب شمالاً

واعتقدوا أن هناك آلهة للماء وللأرض وللأهواء ، وتوسعوا فى تصوراتهم فجعلوا للحياة الها وللبوت آخر ، وللسموات والحب غيرها وهكذا

وكانت عبادتهم للشمس قوية باعتبارها مصدر الحياة والنور ، فاختراروا لها مدينة خاصة أسموها عين شمس (هليوبوليس) كما أسموا الشمس (رع) عند الشروق و (اتوم) عند الغروب . ونظراً لدقة ملاحظتهم للقمر وإعجابهم بانتظام سيره الزمنى ، جعلوا منه منظاراً لزرعهم واعتبروه الها للعلوم والآداب ، واتخذوا بلدة الأشمونين (قرية من المنيا) مقراً لعبادته

المتأهله ، إلى بناء المعابد والاهتمام بشأنها وتنميتها وزخرفتها . وكل هذا لا يخرج عن كونه الفن المصرى إجمالاً ، لأننا إذا ألقينا النظر على وادى النيل كله ، ونأملنا ما تركه المصريون قديماً ، لا نجد إلا أهراما ومعابد ومدافن ، وما بداخلها لا يخرج أيضاً عن متروكات ارتبطت بحياة الناس أو بموتهم

ويتلخص تاريخ الفن المصرى كدراسة خاصة ، فى التوسع فى وصف هذه الآثار ووضع قواعد لتأديجها وتطوراتها ورقبها وانحطاطها ، وعلاقة ذلك بالحياة الاجتماعية فى ذلك الحين ، مع الاستعانة بما وجد على الجدران والسقف من كتابات ونقوش وزخارف ، وما وجد من تماثيل وتحف ومحفوظات دلت بدرسها على ما وصلت إليه المدينة المصرية من مستوى يحملها وحيدة فريدة بذاتها بين أمم العالم

ولا اعتقاد المصريين فى عودة الحياة إلى الجسم بعد الموت (البعث) فضل عظيم فى إيجاد التقدير المائل نحو الموقى الذين تمتعوا أثناء حياتهم بمشاهدة مقابرهم التى سيدفنون بها بعد موتهم وفكرة شروق الشمس واعتقادهم بأنها تأتى معها بالحياة ، وفكرة غروبها واعتقادهم بأنها تذهب ومعها الحياة ، جعلتهم يدفنون موتاهم على الضفة الغربية للنيل فى معظم الأحيان ، ليمثلوا بذلك الموت فى أظهر ممانيه

وكانت هناك عقائد خاصة بحال الروح بعد الموت ؛ فن المصريين من اعتقد أنها تسكن عالماً آخر أسفل هذه الدنيا ؛ ومنهم من ظن أنها تتحول إلى طير يطير بعد مفارقة الجسم إلى قرص الشمس ليعيش بجواره

وحرصهم على جثث موتاهم التى تعود إليها الروح فى وقت ما ، جعلهم يمهرون فى فن التحنيط ، كما تفتتوا فى طريقة المحافظة على الموميات ، فتراهم دفنوها دفناً متيناً ، بعد وضعها فى تابوت من الخشب وضع فى تابوت آخر من الصوان أو الحجر الجيرى . وكانت مدافنهم على شكل الأهرام أو على شكل المصاطب أو فى جبانات عملت خصيصاً وكان الغرض من التحصين الحيلولة بين اللصوص وبين العبث بالجثث ، وبما دفنوه معها من أدوات وجواهر وتماثيل الخ .

واشتملت حوائط غرف الأهرام والمصاطب والمقابر على كتابات ونقوش ، كما اشتملت على رسومات تبين صاحب القبر يراقب الخدم أثناء اشتغالهم بخدمته والمحافظة على راحته بعد موته . وكانت العناية ببناء المقابر فائقة فى كل أجزائها التكوينية والشكلية ، وسهر نفر معين من الناس للمحافظة عليها نظير أجر معلوم حصلوا عليه من أصحابها

أحمد موسى

ورمزوا للسماء بقرة رسموها فى معبد درندرة (بالقرب من قنا) وبقطة فى صالحجر (بالقرب من كفر الزيات) وبلبؤة فى منفيس (بالقرب من بدرشين)

وكانت مصوراتهم التى رمزوا بها للآلهة بسيطة فى أول الأمر ، مما يدل على بساطة معيشتهم فى ذلك الحين ، كما أن رسوماتهم لها لا تدل على أنهم أحبوا حيواناتهم حباً عظيماً جعلهم يصورون رؤوس هذه الآلهة بصورتك الحيوانات نفسها عند تدهور المدينة المصرية

وإذا دهشنا للعقيدة المصرية من ناحية العقيدة الدينية ، فأننا لا نندهش عند ما نجد الكهنة يتركونهم مسترسلين فى عقائدهم حتى بذلك يدوم لهم السلطان

وكانت هذه العقيدة ، رغمًا عن عدم انسجامها مع العقيدة المصرية خير دافع للفن المصرى بل وإلى الحضارة المصرية إجمالاً ، فكل ما وصل إليه المصريون من أبهة وعظمة كان عن طريق هذه العقيدة ، وكل ما تركوه من آثارها لا يخرج عما شيده للدين

فانشأوا المقابر والأهرام والمعابد ، كل هذا لم يكن إلا لرسوخ العقيدة الدينية فى أنفسهم . ولا يعنينا الآن وصف شئ من مقابرهم أو أهراماتهم ؛ أما معابدهم فكانت إجمالاً عبارة عن حوش محدود بحوائط تنتهى بصالة مستطيلة ذات أعمدة ، وعلى يمينها ويسارها غرف لحفظ الأثاث والأدوات والهدايا ، وضمن هذه الغرف مساكن الخدم وخصصوا غرفة وضوا فى وسطها حجراً من الجرانيت المنحوت جيداً ، جعلوه قاعدة لتمثال المعبود الذى كان أحياناً من الخشب المطعم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وبارتفاع يتراوح بين نصف متر ومترين

وكانت احتفالاتهم الدينية فى أول الأمر بسيطة ، ولكنها أخذت شكلاً عظيماً بعد ، فبدأوا يقيمون حفلاتهم الدينية التى كانت تتخللها الموسيقى والغناء والرقص

وقام الكل بتموين هذه المعابد بالمال كل والمشرى ، ووصل بهم الحال إلى جعل الاشتراك فى هذه الاحتفالات إجبارياً ، فاشتريت البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وقدموا هداياهم لإرضاء للعبود لينالوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة . وكان فرعون ، وهو الحاكم المطلق للبلاد يقوم علاوة على مهمته المدنية بمهمة الكاهن الأكبر ، وقد عين لنفسه نائباً فى كل معبد ، يقوم بتقديم القرابين للمعبود ؛ وبرئاسة المصلين الذين يدعون لفرعون بدوام الملك والآلهة . وكان من شأن الكاهن أن يقوم بالمحافظة على المعبد بمشتملاته وبمراقبة حساباته من إيرادات ومصروفات

من كل هذا نرى أن الدين المصرى دفع المصريين فى إخلاصهم